

الكتاب والمؤلف

لا شك أننا نحيا مرحلة فريدة من تاريخ الإنسان، بلغ فيها العلم قممًا عالية، جعلته يقوم بدور لا نظير له في الحضارات السابقة. وقد صاحب ذلك زوال الكثير من الحواجز بين العلم الحديث والقضايا الغيبية، كالألوهية والروح والدين، فأصبح الامتزاج بين العلم والإيمان حقيقة واقعة، حتى شاع بين العلماء القول بأن الفيزياء الحديثة قد أصبحت تعيش في تخوم الميتافيزياء.

لذلك أعتبر أن «رحلة عقل» التي أبحرنا فيها مؤلفها د. عمرو شريف بين عوالم الفكر والدين والعلم، رحلة جاءت في موعدها تمامًا.

ومؤلف الكتاب، بالإضافة لمعرفتي به كأستاذ متميز في الجراحة (في الجانبين العلاجي والتعليمي) بكلية الطب بجامعة عين شمس، له اهتمامات علمية وفكرية عميقة متنوعة، تمثلت في ثلاثة مؤلفات قبل هذا الكتاب. أولها: كتاب «أبي آدم، من الطين إلى الإنسان» وي طرح فيه مفهوم «الخلق بالتطور الموجّه» الذي لا يتعارض مع الدين، وكتاب «رحلة عبد الوهاب المسيري الفكرية» والذي يحلل فيه (من خلال المفكر الكبير) الحضارة المادية الحديثة وما أفرزته من نتائج أهمها الحركة الصهيونية، وأخيرًا كتاب «المخ ذكر أم أنثى؟!» (الذي قدمْتُ لطبعته الثانية) والذي تناول فيه بعمق المتخصص وتبسيط المستوعب الفوارق البيولوجية بين مخ الرجل ومخ المرأة.

ويشتمل كتاب «رحلة عقل» على جزئين. يعرض المؤلف في الجزء الأول منه الرحلة العقلية لأستاذ الفلسفة البريطاني، سير أنتوني فلو، الذي يُعتبر أشرس ملحد في النصف الثاني من القرن العشرين؛ إذ كانت كتاباته بمثابة جدول أعمال الملاحدة خلال تلك الفترة، وعندما جاوز الثمانين من عمره فاجأ العالم بأنه قد أصبح يؤمن بأن «هناك إله»، وأصدر عام ٢٠٠٧

كتابًا يشرح فيه الدوافع وراء هذا التحول، والتي تلخص فيها أظهرته الاكتشافات العلمية الحديثة من تعقيد مبهر في بنية ونشأة الكون والحياة.

وفي الجزء الثاني من الكتاب، ينتقل المؤلف من رحلة أنتوني فلو العقلية إلى رحلته هو. فيطرح للتقويم أربعة مفاهيم أساسية لا بد أن تدور حولها التساؤلات في عقل كل إنسان يهتم بالفكر وبالدين وبنفسه. فيبدأ بتقويم الاكتشافات العلمية حول نشأة الكون، من ناحية دلالتها على وجود الإله الخالق (البرهان الكوني). وهل قصد الإله أن يكون الكون مُعدًّا لنشأة الإنسان (المبدأ البشري).

ثم ينتقل الكاتب بنا من هذه السياحة العلمية إلى مفاهيم التدين والإلحاد. فيعرض علينا الديانات المختلفة التي يدين بها البشر)، ويضع لنا قياسات موضوعية للحكم على ما تعرضه هذه الديانات من مفاهيم. ولا شك أنني لم ألتق من قبل بهذا الأسلوب العلمى في النظر إلى الأديان؛ إذ اعتدنا على استبعاد المفاهيم الدينية من التقويم الموضوعى.

وإذا كان الأمر لا يُعرَف إلا بنقيضه، فقد وضع المؤلف مفاهيم الفكر العلماني في الميزان، لنرى إن كان هذا الفكر يقف على أعمدة صلبة أم أنه مجرد فرار من الالتزامات الدينية.

ولا تكتمل الرحلة العقلية مع الأديان دون النظر في العلاقة بين ما نشعر به من مشاعر روحية ودينية وبين بيولوجيا الإنسان. ويفاجئنا الكاتب بالأدلة العلمية على أن هذه المفاهيم مدموغة في جيناتنا وفي أمخاخنا!.

وإذا كان الملحدون يأخذون على الأديان أنها تجعل للقلب دورًا في المنظومة المعرفية والشعورية، فقد بذل المؤلف جهدًا كبيرًا للتنقيب في الأبحاث العلمية الحديثة التي تؤيد هذا المفهوم.

ويلعب اجتهاد الكاتب ذروته عندما يطرح المفاهيم الغيبية الخاصة بجوهر الإنسان (الروح/ النفس) للتمحيص العلمى؛ إذ إن لهذا الجوهر وجودًا في عالم الشهادة، ومن ثم لا يستعصى عن البحث والنظر. كذلك يدهشنا الكاتب عندما يطرح للتمحيص العلمى رحلة الوجود الإنسانى: منشأه في عالم الغيب، مساره في الحياة الدنيا، منتهى رحلته بعد الموت.

ولا يفوت المؤلف عند ختام الكتاب أن يعقد مقارنة بين الفكر الفلسفى الدينى الإسلامى وبين الرحلة العقلية لأنتوني فلو. فاخترار لذلك قصة حى بن يقظان للفيلسوف الأندلسى ابن

طفيل، وأظهر لنا جوانب السبق في هذه الرحلة التي كُتبت منذ ثمانية قرون.

وبهذا التناول المتكامل العميق، وبهذا العرض العبقري، يقنعنا الكاتب أن القضايا الغيبية التي تطرحها الأديان، ابتداءً من مفهوم الألوهية إلى حقيقة الذات الإنسانية إلى رحلة الإنسان في الوجود، تعتبر بمثابة الحقائق المطلقة التي تخضع للبراهين العلمية والعقلية.

ولا شك أن هذا الطرح جديد كل الجدة، ويعتبر ثورة في المفاهيم العلمية وثورة في النظرة إلى الدين.

بعد هذا العرض لأفكار كتاب رحلة عقل، أسجل في السطور التالية بعض الملاحظات التي خرجت بها من مراجعتي لأصول الكتاب:

إذا كان الكاتب قد استغل رحلة أuttonي فلو كمدخل لطرح رحلته العقلية، فلم يقف عند ذلك الحد، بل حرص على استنفار القارئ ليُعمل عقله لتكون له رحلته الخاصة به. ومن أجل معاونته في ذلك قام الكاتب بعرض بعض التفاصيل العلمية والفلسفية (في متن الكتاب وفي هوامشه)، لتكون مادة يبحر فيها القارئ بعقله. فنجدهُ يُسَّط لنا نظريات الفيزياء الحديثة كنظرية الكم (الكوانتم) والنظرية النسبية والقوانين الحاكمة للصدفة، ويطرح علينا بنية وآلية عمل الشفرة الوراثية (الدنا DNA)، ويُسَّط لنا بعض النظريات الفلسفية، وعقائد الديانات المختلفة، وغير ذلك.

وقد استعمل الكاتب أسلوب الحوار مع الأطراف المعارضة، لما له من تأثير إقناعي قوى عند طرح القضايا الخلافية. فنجدهُ يدير حوارًا مع الملاحدة، وحوارًا آخر مع الماديين المنكرين لجوهر الإنسان غير المادى، وحوارًا مع المتعصبين الدينيين، وحوارًا مع أصحاب الفكر الباحثين عن الحقيقة.

كذلك حرص الكاتب على ألا يقفز إلى استنتاجات نهائية حول مفاهيم ما زالت تحت التأسيس، كعلاقة القلب بالمنظومة الشعورية والفكرية والدينية.

وتلمس في فصول الكتاب إدراك الكاتب أن الصراع الحقيقي لا ينبغي أن يكون صراعًا بين الحضارات، أو بين الأديان، لكنه صراع بين التدين والإلحاد. ولا شك أن هذا الإدراك يزيل ما بين أنصار الديانات المختلفة من خلاف، ويدفعهم للبحث عن جوانب الاتفاق بينهم لمواجهة الإلحاد.

كما تنبه الكاتب إلى جوانب القصور في الخطاب الديني، سواء عند عوام الخطباء والوعاظ أو عند المهتمين بقضايا الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. كما أدرك ما يؤدي إليه هذا العرض القاصر من فقدان الثقة في الفكر الديني. ولا شك أن ذلك أحد أسباب ما يعانيه المسلمون من تخلف حضارى. وأشار المؤلف حملته لاستنفاار الغيورين على الدين، وبصفة خاصة المهتمين بالعلم والفلسفة، لأن ينزلوا إلى الميدان ليتحملوا كامل مسئولياتهم في الثورة التي تهدف إلى تجديد الخطاب الديني.

والقارئ للكتاب يدرك بوضوح أن المؤلف لا يقف عند منازلة الملاحظة ليردهم إلى حظيرة الإيمان، لكنه يخاطب في المقام الأول المتدينين الذين يسعون لأن يرقوا بتدين الميلاد إلى يقين العقيدة، والمتدينين الذين يشعرون بالنقص عند مواجهة الإلحاد المتشع بثياب العلم.

وفي ختام هذا التقديم والتعريف بالكتاب وبمؤلفه، أسجل أنه إذا كان أنتوني فلو قد توصل في رحلته العقلية إلى أن هناك إلهًا، ثم توقف عند قضايا الغيب التي تطرحها الأديان، فإن د. عمرو شريف قد فاق أنتوني فلو في استدلاله على قضية الألوهية، وواصل رحلته العقلية بنجاح في الاستدلال على باقى القضايا الغيبية.

لذلك فإننى أهيب بكل باحث عن الحقيقة، وكل متدين يبحث عن يقين العقيدة، وكل ملحد، أن يقرأ هذا الكتاب قراءة متأنية، وأن يشارك المؤلف في هذا الأسلوب الجديد في النظر إلى العلم وإلى الدين، وأن يشاركه في دعوته لتجديد الخطاب الديني.

أ.د. أحمد عكاشة

أستاذ الطب النفسى بكلية الطب . جامعة عين شمس

رئيس مركز بحوث الصحة النفسية لمنظمة الصحة العالمية

رئيس الجمعية المصرية للطب النفسى

رئيس اتحاد الأطباء النفسيين العرب

الرئيس الأسبق للجمعية العالمية للطب النفسى

قَبْلَ أَنْ تَقْرَأَ هَذَا الْكِتَابَ

سير «أنتوني فلو»^(١) «Sir Antony Flew» (أستاذ الفلسفة البريطاني) اسم ذائع الصيت في مجالات الفكر والفلسفة والإلحاد والتدين! كان يُعد بحق من أكبر ملاحدة العصر الحديث، وتعتبر كتاباته الغزيرة جدول أعمال الفكر الإلحادي طوال النصف الثاني من القرن العشرين. في التاسع من ديسمبر عام ٢٠٠٤، فوجئ العالم بخبر ما زال صدها يتردد في الأوساط الفلسفية والعلمية والثقافية والدينية؛ لقد أعلن أنتوني فلو (بعد أن بلغ من العمر ثمانين عامًا) أنه قد صار يؤمن بأن «هناك إله». وقد أذاعت وكالة أنباء الأسوشيتد برس الخبر بعنوان:

«ملحد شهير يؤمن بالإله، بدافع من الشواهد العلمية»

Leading atheist now believes in God, more or less,
based on scientific evidence.

أصاب الخبر الملاحدة من زملاء أنتوني فلو وتلاميذه بهستيريا عارمة، حتى امتلأ إعلام العالم الغربي الحر بسخريتهم وازدراءهم لهذا التحول!

وقد طُلب من أنتوني فلو مرارًا أن يُصدر كتابًا يعرض فيه رحلته، من صبي مؤمن إلى رجل ملحد إلى شيخ في الثمانين يؤمن بوجود الإله. وأخيرًا صدر عام ٢٠٠٧ الكتاب المنتظر:

«هناك إله: كيف عدَّل أشرسُ مُلحدٍ عن الإلحاد»

There is a god; How the World's most
notorious atheist changed his mind.

ونقوم في كتابنا هذا «رحلة عقل» بعرضٍ لكتاب أنتوني فلو «هناك إله»، ثم طرح قضية العلاقة بين الدين والعقل والعلم للتحليل. ونمّا كان الكتاب يدور حول الفيلسوف الكبير

(١) وُلِدَ في لندن في ١١/٢/١٩٢٣.

الذى انتقل من الإلحاد إلى الإيمان بوجود إله، بعد أن راجع مفاهيمه الفلسفية والعلمية، وجب أن نعرض في هذا التقديم تعريفاً بالإلحاد المعاصر ونشأته، وكذلك تعريفاً بالفلسفة والعلم وعلاقتها بالدين، حتى نستطيع أن نتابع هذه الرحلة العقلية الممتعة.

أولاً : نشأة الإلحاد المعاصر وسماته^(١)

حتى ندرك مقدار وأسباب ما أصاب الملاحدة في العالم الغربى من لوثة، بسبب موقف أنتونى فلو الجديد، علينا أن نتفهم الظروف المحيطة بنشأة الإلحاد في أوروبا في العصر الحديث.

تبدأ القصة منذ عدة قرون...

حتى خمسمائة عام مضت، كان المصدر الأساسى للمعرفة في أوروبا هو الكتاب المقدس بعهديه (العهد القديم: التوراة، والعهد الجديد: الإنجيل)، كما تبنى رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية آراء أرسطو^(٢) وبطليموس^(٣) العلمية حول الكون وكوكب الأرض والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعى...، وألحقوها بمفاهيمهم المقدسة.

بناءً على هذه المصادر، كَوَّنَ إنسان العصور الوسطى في أوروبا صورة عن العالم، هى:

- ١- تقف الأرض ثابتة في مركز الكون، وتدور الشمس والقمر وبقية الكواكب حولها في دوائر.
- ٢- خَلَقَ الله العالم عام ٤٠٠٤ ق.م. وقد استنتج الكهنة هذا التاريخ من جَمْع أعمار الأجيال المتتابة من أبناء آدم، كما جاءت في التوراة في سفر التكوين^(٤).
- ٣- سوف تكون نهاية العالم (أى يوم القيامة) في تاريخ ليس ببعيد، عام ٤٠٠٤ ميلادية. وذلك لكى تتوسط حياة المسيح تاريخ العالم.

(١) عن مقدمة كتاب «الدين والعقل الحديث» للفيلسوف الأمريكى والتر ستيس، المنشور بالعربية عام ١٩٩٨، ترجمة أستاذ الفلسفة الدكتور/ إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولي.

(٢) للتعريف بأرسطو انظر هامش ص ٥٠.

(٣) بطليموس Ptolemy: وُلِدَ في طيبة بمصر عام ٨٥م، ومات بالإسكندرية عام ١٦٥م، وهو فلكى ورياضى وجغرافى، من أشهر علماء التاريخ القديم، ظلت مفاهيمه الفلكية سائدة حتى العصور الوسطى.

(٤) العهد القديم هو كتاب اليهود المقدس، واعتُبرَ أيضًا الجزء الأول من الكتاب المقدس عند المسيحيين. وتوراة موسى هى أول أجزاء العهد القديم وأهمها؛ حتى يمكن إطلاق اسمها عليه مجازًا. وسفر التكوين هو أول أسفار التوراة الخمسة، ويحكى قصة الخلق من بدايته حتى وفاة نبي الله يوسف عليه السلام.

٤- خلق الله العالم في لحظة ما في الماضي، تمامًا كما يصنع البشر المنازل والآلات والأثاث. والفارق الوحيد هو أن الناس تصنع ما تصنع من مواد موجودة سلفًا.

٥- يسير العالم طبقًا لخطة إلهية مُحكمة؛ فكل شيء في الكون له هدف وغاية (الغائية). فقد خلقت الشمس لكي توفر النور للإنسان خلال النهار، بينما يُزَوِّد القمر بالضياء ليلاً، كذلك يظهر قوس قزح لِيُذَكِّرَ الإنسان بوعد الله للنبي نوح بألا يُدمَّر الجنس البشري مرة أخرى عن طريق الطوفان.

وإذا كانت هناك أشياء مقززة، كالحشرات والثعابين والقاذورات، فقد تكون عقابًا للإنسان على خطيئته الأصلية، حين عصى آدم ربَّه وأكل من الشجرة.

وفي النهاية، لا يمكن لعقل الإنسان الكشف عن جميع أسرار الخطة الإلهية. ولكن عليه أن يثق كل الثقة في أن لكل شيء غرضًا.

٦- يمثل العالم نظامًا أخلاقيًا، وهذه فكرة بالغة الأهمية في التاريخ العقلي والروحي للجنس البشري. وهي تعني أن القيم الأخلاقية (كتحديد الخير والشر) مطلقة يحددها الإله، وليست نسبية تعتمد على رغبات البشر ومصالحهم ومشاعرهم.

٧- ويقف وراء ذلك كله إله خالق، ينظر إليه إنسان العصور الوسطى، باعتباره عقلًا واعيًا أو روحًا، ليس له جسد مادي، له أفكار وتصورات، وربما انفعالات وعواطف أيضًا.

٨- رجال الكنيسة هم الوساطة بين الإله وبين الناس، في قبول التوبة والحصول على الغفران، ودخول الجنة.

لقد أعطت الهيمنة على الدين والعلم رجال الكنيسة القوة، متمثلة في السلطة والثروة. ولقرون طويلة مارست الكنيسة الكاثوليكية في روما سلطتها على شعوب أوروبا وحكامها، حتى إنهم كانوا يُنصَّبون الملوك ويعزلونهم.

ولما كان الشعور الديني شعورًا فطريًا، تقبل الناس هذه الهيمنة، وضحوا بحريتهم وما لهم لصالح رجال الدين^(١).

(١) يكرر هذا النمط من سيطرة رجال الدين على العامة والحكام نفسه عبر التاريخ. فإذا كان المصريون القدماء ينظرون إلى ملوكهم الفراعنة باعتبارهم آلهة، وينظرون إلى الكهنة باعتبارهم حلقة الوصل بين الناس وبين الآلهة في الأرض وفي السماء، فبمجرد أن حاول أخناتون تحدي سلطة رجال الدين، قتلوه ونصَّبوا توت عنخ آمون كفرعون وإله بدلًا منه!

ثم وقعت الطامة الكبرى، عندما أعلن كوبرنيكوس^(١) (بحساباته الرياضية) وأثبت جاليليو^(٢) (بتلسكوبه) أن الأرض ليست مركز الكون، بل هي مجرد كوكب تابع يدور حول الشمس. لقد دفعا ثمنًا غاليًا لعلمهم وشجاعتهم؛ إذ تبنت الكنيسة حملة شعواء لاضطهاد وتعذيب وقتل العلماء باعتبارهم من السحرة والمشعوذين.

كذلك كان اكتشاف الميكروسكوب (عام ١٥٩٥) صدمة كبيرة؛ إذ مكّن العلماء لأول مرة من رؤية الجراثيم، التي ثبت بعد ذلك أنها المسؤولة عن كثير من الأمراض. كيف ذلك؟! أليس الله (أو الشيطان) هو الذى يُنزل الطاعون والأوبئة بالبشر؟ كيف تستطيع، إذن، صلوات رجال الدين (مدفوعة الأجر) أن تشفى الأمراض؟

إسحاق نيوتن... وآلية العالم...

بلغت الجهود العلمية ذروتها بفضل عبقرية إسحاق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) التي أتمت إرساء أسس العلم الحديث. لقد كان نيوتن مسيحيًا ورعًا، ولا شك أنه كان سيصاب بالهلع لو شعر أن إنجازاته العلمية سوف تُقوّض أركان الإيمان الدينى فى الغرب.

لقد توصل إسحاق نيوتن إلى قوانين الحركة الثلاثة الشهيرة، وكذلك قانون الجاذبية. وقد وصف - بدقة من خلال هذه القوانين - بنية المجموعة الشمسية (الشمس والكواكب الدوّارة حولها). وهى القوانين نفسها التى تصف سقوط التفاحة من الشجرة، كما تصف ما يحدث إذا تصادم قطاران.

لذلك شَبَّه الفيزيائيون النظام الشمسى (كما شرحه نيوتن) بالساعة الزنبركية، التى تُملأ ثم تُترك لتعمل تلقائيًا. إن قوة الجاذبية، وقوة الطرد المركزية وقوانين الحركة، كفيلة بالمحافظة على عمل النظام الشمسى دون التدخل من قوى خارجية.

انتشرت فكرة آلية العالم انتشار النار فى الهشيم، فقام العلماء والفلاسفة فى أوروبا بتفسير كل شىء من خلال منظور الآلية. حتى إن توماس هوبز (فيلسوف الإلحاد البريطانى الشهير) شَبَّه أجهزة جسم الإنسان بمجموعة من الآلات التى تحكمها القوانين الفيزيائية.

(١) «كوبرنيكوس - Copernicus»: فلكى بولندى (١٤٧٣ - ١٥٤٣)، وقد نشر نظريته فى كتابه De revolutionibus Orbium Coelestium الذى صدر يوم وفاته.

(٢) «جاليليو - Galileo Galilei»: عالم الفلك الإيطالى الشهير (١٥٦٤ - ١٦٤٢).

وقد لاحظ نيوتن اختلافًا طفيفًا بين ما ينبغي أن تكون عليه مدارات الكواكب كما تحددها حساباته، وبين المدارات الفعلية التي يرصدها التليسكوب. وإذا تراكمت هذه الفوارق مع مرور الزمن، لانتقلب النظام الكوني رأسًا على عقب؛ إذ إن الكواكب قد تبتلعها الشمس، أو قد تفلت من سيطرتها وتندفع في الفضاء الكوني السحيق.

تغلب نيوتن على هذا الإشكال بأن قال بأن الله يتدخل من وقت لآخر ليعدّل مسارات الكواكب! لقد كانت هذه آخر مرة يطرح فيها عالم عظيم فكرة تدخل قوى غيبية، كتفسير لظاهرة طبيعية.

ثم أثبت الفلكي الفرنسي ماركيز لابلاس (١٧٤٩ - ١٨٢٧) أن الانحرافات التي عجز نيوتن عن تفسيرها بالقوانين الطبيعية ليست تراكمية، وأنها تلغى بعضها بعضًا بعد فترة من الزمان، وبالتالي لا تحتاج إلى تدخل إلهي لتصحيحها. لذلك أجاب «لابلاس» نابليون (عندما سأله عن دور الإله في النظام الكوني) بأنه لا يرى حاجة للقول بهذا الافتراض!!

الإلحاد يطل برأسه...

لكن، كيف تسببت هذه الاكتشافات (وغيرها كثير) في الصراع الذي نشب بين العلم والدين في أوروبا؟

لم يكن الصراع بين العلم والدين بسبب مكتشفات «مُعَيَّنة» للعلم تعارض معتقدات «مُعَيَّنة» للدين.

كذلك فإن المفاهيم التي كان على الكنيسة أن تتخلى عنها، أمام طوفان العلم، لم يكن منها ما هو ضروري للدين.

تتلخص أساسيات الدين في ثلاث نقاط، نطلق عليها «النظرة الدينية للعالم»:

١ - هناك إله خلق الكون.

٢ - هناك خطة كونية وغرض كوني للخالق من الخلق (الغائية).

٣ - العالم يمثل نظامًا أخلاقيًا يحدده الإله.

من المؤكد أنه منذ بداية الثورة العلمية في القرن السابع عشر - وحتى الآن - لم يظهر اكتشاف علمي واحد ولا وُضعت فكرة منطقية تعارضت مع هذه الأساسيات، التي لولاها لانهدم الدين.

ومع ذلك، فإن الثورة العلمية كان لها بالفعل أثر مدمر للدين؛ إذ أعقبتها مباشرة نزعة شكّية إلحادية كبرى، جعلت من القرن الثامن عشر أكبر عصر للشك في التاريخ الحديث، حتى أن ملك إنجلترا كان يشكو من أن نصف أساقفة كنيسته ملاحدة!

كيف أدت الثورة العلمية إلى زلزلة النظرة الدينية للعالم، بالرغم من أنه سواء كانت الأرض هي مركز الكون أو كانت مجرد تابع صغير يدور في فلك الشمس، فإن ذلك لا يمنع وجود إله خلق كل شيء؟

سؤال منطقي آخر: هل نكون أكثر صدقًا وأمانة وأشدّ إخلاصًا وعدالة لو تمسكنا بقانون الحركة عند أرسطو، ولم نستبدله بقوانين الحركة عند نيوتن؟! لماذا قضت الثورة العلمية على اعتبار أن العالم نظام أخلاقي كما ترى الأديان؟

لماذا...

نؤكد عن يقين أن نشأة الإلحاد وإنكار (أساسيات النظرة الدينية) لم تكن مشكلة علمية على الإطلاق، بل مشكلة نفسية فلسفية!

يكن مفتاح فهم هذه المشكلة في أن عقول البشر لا تعمل بالطريقة التي يقول بها المناطقة. فإذا كان اقتناع رجل بفكرة معينة (أ)، ينبغي منطقيًا اقتناعه بالفكرة (ب)، فإن الواقع يجبرنا أن هذا الانتقال المنطقي هو الاستثناء وليس القاعدة!

فالأعم الأغلب هو الانتقال بين الأفكار عن طريق التداعي النفسي والإيحاء، فهي انتقالات نفسية وليست منطقية.

إذن، ما هي العوامل النفسية (السيكولوجية) التي أدت إلى هذه النزعة الشكّية الإلحادية الكبرى؟

أولاً: لا شك أن ما تعرض له العلماء من اضطهاد وتنكيل على يد الكنيسة، قد أدى إلى تبني العلماء والمفكرين موقفًا عدائيًا من الدين، انعكس على موقف العامة.

ثانيًا: إذا كان نيوتن قد رجع بعلاقة الإله بالكون إلى وقت خلق النظام الشمسي، وترك له دورًا يتمثل في تعديل مدارات الكواكب من حين لآخر، فقد رجع لابلاس بهذه العلاقة إلى بدء خلق الكون، وألغى قيام الإله بأى دور كوني.

وبذلك تلاشت نظرة الكنيسة بأن الله خلق الكون منذ ستة آلاف سنة، وأنه خلق جدنا آدم بيديه، تلك النظرة التي كانت تعنى أن العلاقة قريبة وأن الله يهتم بنا كثيرًا.

كذلك كان الشعور بقرب الله يغذيه الإيمان بالتدخل الإلهي المباشر في حياة البشر، فالصواعق تبيد أعداء الدين، والزلازل تعاقب العصاة. لكن التفسيرات العلمية لمثل هذه الظواهر لم تدع مجالاً لذلك.

ثالثًا : يرى من أراد (إمساك العصا من الوسط) أن الله قد خلق العالم، ووضع فيه قوانين الطبيعة التي تُسيّرهُ. إن ذلك يعنى أن الإله الخالق لم يعد يفعل شيئًا لنا، وليس له أدنى تأثير في أحداث العام. إنه ببساطة إله لا أهمية ولا احتياج إليه!

رابعًا : نجح العلم في تفسير الظواهر الطبيعية بشكل لا يحتاج للبحث عن غاية أو هدف. كما نجح بشكل كبير في التنبؤ بالظواهر الطبيعية، كالخسوف والكسوف والعواصف. وقد قدم ذلك خدمات مباشرة للإنسان، فأصبح يتحاشى الإبحار في يوم محدد مثلًا تفاديًا لهيجان متوقع للبحر؛ لذلك اقتنع الإنسان بسداجة تفسيرات رجال الدين ونبوءاتهم.

خامسًا : اعتقد رجل عصر العلم أن نجاح التفسير المادى للظواهر الطبيعية، واختفاء الغائية عن أحداث الكون، يعنى اختفاء الغائية من خلق الكون.

سادسًا : عندما لم يعد للإله غاية من خلق البشر وتلاشى دوره في حياتهم، لم يعد هناك مبرر لأن يضع لهم منظومتهم الأخلاقية (ما يجب عليهم فعله وما لا يجب). وهكذا هدمت الثورة العلمية الإيمان بأن العالم يمثل نظامًا أخلاقيًا، وارتبطت القيم الأخلاقية بمصالح البشر المادية العاجلة.

سابعًا : قدم العلم الحديث للإنسان إنجازات علمية وحضارية، وحقق له رفاهية وثراء لم يكن يتصورها في يوم من الأيام، فتبدلت عقيدته من الإيمان بالإله، إلى الإيمان بالعلم وقدراته وإنجازاته.

ثامنًا : لذلك كله، أخذ المفكرون يتساءلون : إذا كان العلم قد قطع شوطًا كبيرًا في فهم آلية أمور كانت تُفسّر بشكل ميتافيزيقي، كالأمرض والرعذ والبرق والزلازل...، فما المانع في أن يتوصل العلم لتفسير كل ما نعتبره ميتافيزيقيًا؟ وبذلك تلاشت تمامًا الحاجة إلى الدين وإلى الإله.

لقد ألفت هذه الأسباب النفسية^(١) بالمفكرين والعلماء والعامّة من الناس في القرن الثامن عشر في مستنقع الشك، حتى صار القرن التاسع عشر يُعرف - بالمقارنة بما قبله - بعصر العودة إلى الإيمان، بسبب النزعة الرومانسية التي ظهرت فيه. بل يمكننا القول إن العقل العلماني الحديث هو نتاج الثورة العلمية في القرن السابع عشر، وليس القرن التاسع عشر أو القرن العشرين. وبدخول القرن العشرين، ظهرت مقولة «الدين أفيون الشعوب» التي أطلقها كارل ماركس. ويقصد بها أن الأغنياء والأرستقراطيين يستغلون مفهوم الدين لتخدير الفقراء، وحملهم على قبول ما هم فيه من بؤس كأمر واقع، طمعاً في الفردوس في حياة بعد الموت. نتيجة لذلك كله، شاعت مقولة فريدريك نيتشه^(٢) التي ألفاها آخر القرن التاسع عشر: هل مات الإله ؟ Is God Dead ؟ وبدلاً من أن تظل قولاً لفيلسوف يمثل رأياً يؤمن به، أصبحت المقولة عنواناً يتكرر في الصحف اليومية.

وينقسم الفكر الإلحادي إلى مجموعتين كبيرتين:

(أ) الفكر الإلحادي القوي Strong (Positive) Atheism

ويمثله الذين ينكرون وجود الإله، ويسوقون على ذلك الأدلة، ويبنون النظريات، ويروجون لفكرهم.

(١) بالإضافة إلى العوامل العقلية والنفسية التي رَجَّحت كفة العلم في الصراع مع الدين في القرن الثامن عشر، نطرح هنا نوعاً من الخلل النفسي Neurosis الذي يؤدي إلى تبني الإلحاد على المستوى الفردي، وذلك حتى نستكمل دراسة العوامل النفسية المختلفة وراء تبني الإلحاد.

بعد دراسات تحليلية مستفيضة أجراها أستاذ الطب النفسي بجامعة نيويورك، بول فيتز Paul Vits، على شخصيات عديدة من ملاحدة العصر الحديث، توصل إلى أن تبني الإلحاد قد يرجع إلى خلل نفسي عَصَابِي، *Atheism is a Neurosis* تقف وراءه رغبة دثينة في اللاشعور للتخلص من سيطرة الأب والحلول محله (كما يقول سيجموند فرويد)، بينما يقف وراء الإيمان بإله ما يحققه ذلك من الشعور بالأمان.

لذلك طرح فيتز مفهوماً أسماه «منظور التقصير الأبوي - Defective father Hypothesis» يربط فيه بين رفض سيطرة الأب البشري، ورفض الأب الذي في السماء، ويضرب فيتز الأمثلة على ذلك. فهذا الفيلسوف الفرنسي الكبير فولتير، الذي يُصنّف من كبار الشكاكين، يعاني بشدة من سوء معاملة أبيه، حتى أنه يلفظ أباه ويرفض أن يحمل اسمه. وتضم القائمة فرويد نفسه، وكارل ماركس، وتوماس هوبز، وآخرين.

كما يرى فيتز أن حرمان الطفل من أبيه بالموت، يعتبره الطفل خيانة حرمة من الدعم الأبوي، ترك آثارها في نفسه وتعزز فيه الشعور بالاستغناء، ويضرب مثلاً لهؤلاء بـ «جان بول سارتر» و«بيرتراند راسل».

وقد ظل بول فيتز ملحداً حتى قارب الأربعين من عمره، ثم صار متديناً ومهتماً بالعلاقة بين الدين وعلم النفس. وطرح هذا المفهوم في أشهر كتبه *Fath of the fatherless, the Psychology of Atheism*، صدر عام ١٩٩٩.

(٢) فريدريك نيتشه Friedrich W. Nietzsche : فيلسوف الإلحاد الألماني الأشهر (١٨٤٤ - ١٩٠٠).

(ب) الفكر الإلحادى الضعيف Weak (Negative) Atheism

ويمثله الذين لم يجدوا أدلة كافية تقنعهم بوجود الإله.

وينقسم الملحدون إلى ثلاث مجموعات

- ١- علماء وفلاسفة، تبنوا الإلحاد، ثم وجدوا في نظرية التطور الداروينى (تطور الكائنات الحية نتيجة لطفرات عشوائية تحدث بالصدفة) حجتهم العلمية الكبرى؛ إذ وضعت آلية مادية لخلق الكائنات الحية، فلم يُعد هناك مبرر لافتراض وجود إله خالق للكائنات، أو للكون!
- ٢- الشيوعيون، الذين يريدون تحويل المجتمعات البشرية إلى مستعمرات من النمل والنحل، ولن يمكن تحقيق ذلك في وجود المعتقدات الدينية، فينبغى القضاء عليها ولو بالقوة.
- ٣- عدد لا بأس به من الصامتين! من كل الديانات والمجتمعات والأجناس، ممن لديهم شك، لكنهم لا يطرحونه للنقاش. ويمكن إرجاع شك هذه الفئة إلى عاملين :
- المظهر العلمى والفلسفى الذى يطرح به أصحاب الفكر الإلحادى القوى أفكارهم.
- الأسلوب المغلق الذى تعلموا به دياناتهم، حيث يرفض معلومهم أى منطق أو علم يخالف ما يفهمون، وهو ما يُسمى بأسلوب «هُوَ كده» Just-so. كما يدعى هؤلاء المعلمون الانفراد بالفهم عن الله، وأن على الآخرين أن يُسلّموا هم بذلك.

ويتبنى الفكر الإلحادى المعاصر المفاهيم التالية:

- ١- نشأ الكون تلقائياً، نتيجة لأحداث عشوائية، دون الحاجة إلى صانع.
 - ٢- ظهرت الحياة ذاتياً من المادة، عن طريق قوانين الطبيعة.
 - ٣- الفرق بين الحياة والموت هو فرق فيزيائى بحت، سيتوصل إليه العلم يوماً ما.
 - ٤- ما الإنسان إلا جسد مادى، يفنى تماماً بالموت.
 - ٥- ليس هناك وجود لمفهوم الروح.
 - ٦- ليس هناك حياة أخرى بعد الموت.
 - ٧- من كل ما سبق، ليس هناك حاجة إلى القول بوجود إله.
- لا أحسب أن الإلحاد المعاصر بهذه السمات، يختلف عن الإلحاد الذى واجه الأنبياء عند نزول الأديان السماوية.

ثانيًا: الفلسفة Philosophy^(١)

لا شك أن العلاقة بين الفلسفة والعلم علاقة قديمة. فمنذ البداية كان العِلَّمان علَمًا واحدًا، يهدف إلى غاية واحدة، هي البحث عن الحقيقة وخدمة الإنسانية.

ثم بدأ كل علم من العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية يستقل عن الأم (الفلسفة)، ليقف على قدميه، وتصبح له مُسَلِّمَاتُه وركائزُه ومناهجُه وأهدافُه التي يسعى لتحقيقها.

لقد استقل العلم الطبيعي بدراسة ظواهر الكون ومكوناته، ونظمه وقوانينه، ومكوناته. فالعالم الفيزيائي يهتم بدراسة المظاهر الطبيعية للمادة والعالم البيولوجي يهتم بدراسة الكائنات الحية، من غير أن يفكرا في أصل المادة والحياة وعلة وجودهما. والرياضي يبحث في الهندسة والحساب (غير مبالٍ بالتفكير في معنى المكان والزمان). وهم جميعًا يبحثون بواسطة العقل الذي يتمتعون به، من غير أن يفكروا في كُنْه هذا العقل، ومدى قدرته على إدراك الحقيقة.

وبالرغم من ذلك، ظلت جذور كل علم تتصل بأصلها الأول؛ لذلك يدرس العلماء فلسفة العلوم وفلسفة الطب، وفلسفة الجغرافيا وفلسفة التاريخ وفلسفة اللغة وفلسفة التربية وغيرها.

أمَّا الفيلسوف، فإنه يريد أن يفهم أصل الكون وعلته وحقيقته، وحقيقة المادة وأصلها وعلة وجودها، ومعنى المكان والزمان، وكذلك حقيقة العقل وقدرته على إدراك الحقيقة. أي أن الفيلسوف يتناول في درسه وبحثه، المعقول والعقل، في آن واحد.

ولا تكتفى الفلسفة بهذا العالم المحسوس، بل تريد أن تعرف الخالق لهذا العالم، وما كُنْه ذاته، وما حقيقة صفاته.

وما هو الإنسان، وما حقيقته.

وما هو الخير، وما هو الجمال، ولِمَ كان الخير خيرًا، والجميل جميلًا؛ إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا تنتهى.

(١) Philosophy لفظ يوناني يتكون من مقطعين Philo = حُب و Sophia = حكمة، فيكون تعريف الفلسفة لغويًا: حُب الحكمة.

لذلك قالوا: إن الفلسفة تشتمل على ثلاثة مباحث أساسية

-- فلسفة الوجود.

-- فلسفة المعرفة.

-- فلسفة القيم.

وبتأمل هذه المباحث الثلاثة، نجد أن الفلسفة في جوهرها هي «البحث عن الله». وقد عبّر رينيه ديكارت^(١) عن ذلك بقوله: «الفلسفة شجرة، جذورها الميتافيزيقا^(٢) وثمرتها معرفة الله». لذلك عرّفوا الفلسفة بأنها (محاولة العقل إدراك حقيقة كل شيء وأصله وغايته).

والمحرك الأول للإنسان لبحث عن الحكمة والغاية، هو شعوره بالدهشة وبطوفان التساؤلات عندما يمر بتجربة ما، أو عندما يمر بعقله خاطر ما. لذلك قال أرسطو: «بالدهشة تبدأ الفلسفة».

وإذا كانت هذه المسائل تهتم بها وراء الطبيعة (وتُسمى الإلهيات أو العقائد والغيبيات) فإن لها انعكاساتها على حياتنا اليومية، لذلك نشأت الفلسفة العملية، التي تهتم بالعديد من القضايا التطبيقية، مثل:

... كيف يكون مسلكنا في الحياة.

- كيف نُربّي النشء تربية حسنة.

-- ماذا يجب على قيادة الدولة، حتى تسير على النهج السليم.

وتحدد هذه المسائل ما ينبغي أن تكون عليه الأخلاق، كما تُستمد هي من الأخلاق. وهي مصدر التشريع الذي يُحرّم المنكر ويردع الذين يرتكبونه.

وقد انعكس الفكر الإلحادي المعاصر، الذي سيطر على العقل الغربي الحديث، على ميدان الفلسفة. فسادت مجموعتان من المذاهب الفلسفية:

المجموعة الأولى: فلسفات عبّرت عن النظرة العلمية المادية إلى العالم، منها: فلسفة هوبز، وهيوم، وفلسفة الوضعيين المناطقة أمثال ألفريد آير^(٣)... إلخ.

(١) رينيه ديكارت René Descartes : الفيلسوف الفرنسي العظيم (١٥٩٦ - ١٦٥٠).

(٢) الميتافيزيقا تعني: «الاهتمام بما وراء الطبيعة»، والمقصود الأمور الغيبية.

(٣) نعرض الفلسفة الوضعية المنطقية، وكذلك التعريف بهؤلاء الفلاسفة، في المقدمة التالية.

والمجموعة الثانية: فلسفات عبّرت عن النظرة الدينية إلى العالم، منها فلسفة ديكارت، وفلسفة كانط^(١).

وحتى ندرك التكامل بين الفلسفة والعلم، نعرض ما آل إليه العلم في العصر الحديث.

ثالثاً: العلم فى العصر الحديث^(٢)

منذ القرن السابع عشر أصبح للمعرفة سبيلاً آخر، غير مفاهيم رجال الدين، وهو العلم^(٣).

ويهدف العلم إلى التوصل إلى القوانين التى تربط بين وقائع معينة، وتكون قادرة على تفسير حدوث ظاهرة ما على نحو محدد، وليس على نحو آخر، بل والتنبؤ بتطور هذه الظاهرة مستقبلاً.

وتتميز المعرفة العلمية بأنها مبرهن عليها منطقياً، ولا يوجد فى داخلها تناقض عقلى، وأنها قابلة للاختبار من خلال الملاحظة والتجربة العلمية. وبذلك تختلف المعرفة العلمية اختلافاً جذرياً عن الاعتقاد الأعمى (الدوجماتى Dogmatic) الذى هو التسليم المطلق بصحة موضوع ما، بدون تأسيسه عقلياً والتحقق منه تجريبياً.

(١) نلخص هنا آراء بعض هؤلاء الأعلام:

أيد ديكارت النظرة الآلية للعالم تجاه جميع الظواهر، باستثناء «النفس» و«الله». بينما عمّم توماس هوبز هذه النظرة الآلية المادية على جميع الموجودات، شاملة النفس البشرية التى طعنها أيضاً فى منظومتها الأخلاقية؛ إذ اعتبر أن الخير هو ما يسر الإنسان، وأن الشر هو ما يحزنه، أى أن الأخلاق نسبية ذاتية لا علاقة للإله (المتوهم) بها. أما ديفيد هيوم فقد أنكر الآلية كما أنكر الغائية! فكان ينكر وجود قوانين الطبيعة التى تحكم النظرة الآلية! وينظر إلى الأمر كله بعشوائية مطلقة، ويرى أن قوانين الطبيعة ما هى إلا تريبطات بين الظواهر يقوم بها العقل البشرى! وفى الجانب الآخر، صد كانت هجمات المذهب الطبيعى المادى المتلاحقة التى قادها أكبر أنصاره: ديفيد هيوم. لقد أثر كانت فى مجرى الفكر البشرى كله، فكان معظم الفلاسفة المحترفين فى أوروبا الغربية، وإنجلترا، وأمريكا - على مدى مائة سنة بعد وفاته - من تلاميذه.

وربما كان أهم ما خلفه كانت القول بوجود عالمين: عالم الزمان والمكان، وهو عالم الظواهر الطبيعية التى يدرسها العلم ويكشف قوانينها. ثم عالم اللازمان: عالم الأزل الذى لا يستطيع العلم أو العقل البشرى أن يصل إليه، وإنما تدركه الروح عن طريق الحدس والشعور والنظرة الصوفية. ويرى كانت أنه ليس هناك تناقض فى أن يعيش الإنسان فى عالمين مختلفين فى وقت واحد، عالم الزمان والمكان وعالم الروح اللامتناهى. وهذا ما ينبغي أن يتبناه إنسان العصر الحديث.

(٢) عن كتاب «الدين والعلم وقصور الفكر البشرى» للدكتور المهندس/ محمد الحسينى إسماعيل - مكتبة وهبة - ١٩٩٩.

(٣) العلم Science: مأخوذ من اللفظ اللاتينى Scientia، ويعنى المعرفة.

ولكن، كيف يتوصل العلم إلى المعرفة وليس لديه نصوص مقدسة يغترف منها ؟
إن الطريق إلى تحصيل المعرفة (أى معرفة) يمر من خلال الإجابة عن سؤالين:
السؤال الأول: لماذا (الغائية أو الحكمة) Why؟

لماذا خُلِقَ الكون؟ لماذا خُلِقَت الحياة؟ لماذا الشقاء والتألم؟....

أدرك العلماء أن التعرض لهذه الأسئلة، التى تبحث فى «الغاية» من الأشياء، يقع خارج نطاق العلم، فأنكر بعضهم الغائية، وقبِلها البعض وتركوها لأهل السبق فيها، وهم الفلاسفة.

السؤال الثانى: كيف (الآلية أو الكيفية) How؟

ذلك هو مجال العلم، بشرط إخراج المخادعين والأدعياء من الميدان.

ولتحقيق هذا الشرط، وضع العلماء للعبة أربع قواعد، ينبغى لمن يريد المشاركة أن يلتزم بها :

القاعدة الأولى: لدينا حواس خمس، هى أداة العلم عند دراسة أية قضية علمية. ولما كنا لا ندرك بالحواس الجسيما تحت الذرية والثقوب السوداء وغيرها، فقد أضاف العلماء «الرياضيات» وحساباتها الأدق من الحواس، كمصدر للمعرفة.

القاعدة الثانية: ينبغى استخدام منهج محدد فى تحصيل المعرفة العلمية، يُعرف بمنهج البحث العلمى، ويشتمل على عدد من المراحل المتتالية :

١- جمع المعلومات وملاحظة الظواهر التى لها علاقة بالمشكلة المراد بحثها.

٢- صياغة الفروض التى تربط بين هذه المعلومات.

٣- إجراء التجارب التى تفحص هذه الفروض، وملاحظة النتائج، والخروج بالاستنتاجات.

٤- التوصل من الاستنتاجات إلى القوانين التى تحكم ظاهرة ما.

٥- الخروج من القوانين بالنظرية العلمية المنسجمة منطقياً، والتى تفسر الوقائع المعروفة لنا من قبل، وتكون قادرة على التنبؤ بوقائع جديدة.

القاعدة الثالثة: استبعاد أى تفسير ميتافيزيقى (غيبى) لأية مشكلة علمية. ويعتبر العلماء هذه التفسيرات مُعَوَّقات للعلم، بل يمكن أن تجهض تقدم العلم تماماً.

فلو اكتفى العلم، مثلاً، بأن مسبب الأمراض هو الله (أو الشيطان)، لما اكتشفنا الجراثيم وغيرها من أسباب الأمراض، ولتوقف الطب عند مرحلة ما قبل أبقرات^(١).

القاعدة الرابعة: ينبغى أن تُطرح المعارف العلمية بأدلتها التجريبية والعقلية، على الأقران والنظراء لتقييمها، ثم قبولها أو رفضها، وذلك من خلال المجلات العلمية والمؤتمرات والكتب وغيرها.

ونتيجة لهذا المنهج العلمى الحازم، نجد أن العلم يتخذ من قضاياها مواقفًا موضوعية، يستجيب فيها العالم لما تقوله الطبيعة. بينما تُعبرُ الفلسفة عن مواقف ذاتية ورؤى شخصية، كثيرًا ما تحمل تضاربًا بين آراء الفلاسفة.

وعلى الرغم من تعارضهما الظاهري، يقدم كل من العلم والفلسفة للآخر خدمات جليلة. وإذا كان الإنسان يحتاج إلى العلم الذى يُعنى بجوانبه المادية والجسدية، فإنه يحتاج إلى الفلسفة التى تعنى بجوانبه العقلية والنفسية، حتى يمكن القول بأن الاثنين وجهان لعملة واحدة هى تاريخ الفكر البشرى.

رابعًا: ما دور الدين؟

رأينا أن كلاً من العلم والفلسفة (العقل) يشبعان فى الإنسان احتياجاته المادية والجسدية والعقلية والنفسية، ويؤكد ذلك أن الملاحدة يحيون حياة لا بأس بها. فما دور الدين فى حياة الإنسان؟

نجيب على هذا التساؤل من خلال منظور الإسلام، كما نفهمه:

أولاً: الدين هو السبيل الوحيد لتعريف الإنسان بربه معرفة صحيحة متكاملة، وتعريفه بما يجوز فى حق الله ﷻ وما لا يجوز.

والدين هو السبيل الوحيد لتعريف الإنسان بمصدره، ومساره، ومآله، والغاية من خلقه.

(١) أبقرات Hippocrates: هو الطبيب اليونانى العظيم (٤٦٠ ق.م. - ٣٧٠ ق.م.). يلقب بأبى الأطباء؛ لتأسيسه علوم الطب على المنهج العلمى. وقد صاغ قَسَمًا اشتهر باسمه، يُقسَم فيه الأطباء عند بداية ممارستهم للمهنة على الالتزام بالأخلاقى تجاه المرضى وزملائهم ومهنتهم.

والدين أيضًا هو السبيل الوحيد لتعريف الإنسان كيف تكون علاقته بربه.

هذه الأمور هي ما تعرف في الديانات بـ «العقيدة». وهي ليست من أجل ملء فراغ في فكر الإنسان ومشاعره، ولكن من أجل إقرار حقائق لن تنتظم حياة الإنسان إلا بها - كما سنرى في فصول الكتاب -.

ثانيًا: يحدد الدين للإنسان «الشرعية» التي تنظم حياته وعلاقته بالآخرين وبالبيئة من حوله. ويعتقد المتدينون أن الله الخالق للإنسان والعالم بخبايا نفسه هو الأقدر على سن هذه القوانين في خطوطها العريضة.

ثالثًا: لا شك أن للإنسان جانبه الروحي المتطلع إلى الغيب. ويسعى إنسان الحضارة الغربية الحديثة المنشغل عن الإله بإشباع هذا الجانب بطرق شتى، منها اللجوء إلى العرافين والمتنبئين، ومنها عبادة الشيطان، ومنها الحج إلى أهرامات الجيزة! وما شابه ذلك مما نسميه «ميتافيزيقا بغير أعباء»: كل ذلك في محاولة لتعويض الدين الذي هو السبيل الوحيد لإشباع الجانب الروحي في الإنسان.

ينفرد الدين بالدور الكامل في حياة الإنسان في المهام الثلاث السابقة.

ثم نأتى إلى مهام أخرى يقوم فيها الدين بدوره من خلال علاقته بالعلم والعقل، وهذه المهام هي:

رابعًا: بحث الدين الحق على طلب العلم الذى يهتم بالجوانب المادية والجسدية للإنسان، كما يوجه العقل في بحثه الفلسفى لإشباع احتياجاته العقلية والنفسية.

بل إن الإسلام يمزج بين الدين والعلم والعقل في سبكة ليس لها نظير في أى منهج آخر. انظر إلى قول الحق ﷻ: ﴿سَرُّهُمْ إِتِّينَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن أجل ذلك نجد أن القرآن الكريم ملء بالدعوة للتفكير، وملء بالإنكار على من لا يستخدمون عقولهم ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ؟، ويشبههم بالدواب.

خامسًا: الدين الحق هو القائد (المايسترو) الذى يوجه العازفين (العلم والفلسفة) ليلعب كلُّ دوره فى موضعه المحدد، فلا يتسلل النشاز إلى حياة الإنسان، فهذا دور العلم، وهذا دور العقل، وهذا مجال المفاهيم الغيبية.

فمثلاً، ينبغى للإنسان ألا يتقاعس عن الأخذ بأسباب العلم انتظاراً لمدد السماء، كما ينبغى ألا يرفض مفاهيم الغيب لأنه لا يستطيع أن يرصدها بحواسه تبعاً للمنهج العلمى، فلكلِّ مجاله.

سادسًا: وإذا كان الدين يهتم بالروح، فالدين هو الروح التى تسرى فى كلِّ من العلم (الآلية) والفلسفة (الغائية)، وبدون هذه الروح يصبح الإنسان جثة تمشى على قدمين، تنشر العفن فى كل مكان حولها.

ليس هذا تشبيهاً أدبياً بليغاً، لكنه وصف علمى دقيق لِمَا أصاب الإنسان والأرض، عندما فارقت الروح العلم والفلسفة.

لقد انطلق العلم هنا وهناك دون ضوابط:

فاخترع قنابل ذرية تقتل ملايين البشر، وتفسد البيئة إفساداً لا صلاح له.

وابتكر عقاقير مخدرة تستعبد ملايين البشر. وخلق سلالات مدمرة من الجراثيم والفيروسات، التى تصيب ملايين البشر بالمرض المعجز والموت.

كذلك انطلقت الفلسفة، بمعزل عن المعارف الدينية، لتصل بالإنسان إلى إجابات عن تساؤلاته المعرفية لم تروِ ظمأه، بل أورثته الحيرة والاغتراب^(١). وقد عبر عن هذه الحالة شاعر المهجر إيليا أبو ماضي فى أبيات بليغة تقطر بالضياع:

جئت لا أعلم من أين... ولكنى أتيت
ولقد أبصرت أمامى طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟
لست أدرى

(١) كما حدث مع سارتر وفولتير، وسنشير إلى تفاصيل ذلك فى الجزء الثانى من الكتاب، الفصل الثالث.

سابعًا: إن الذين نشأوا في بيئة متدينة، أكسبتهم ما تعارف عليه الناس بأنه الدين بالميلاد، يصبح للعقل والعلم - بالنسبة للقادرين منهم - دوره في الترقى بتدين الميلاد إلى الاقتناع العقلي ثم إلى اليقين ثم الخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

بعد هذا الطرح لدور الدين، نوافق الذين يرون أن الدين منهج شامل يشتمل على كل شيء، وليست هناك حاجة إلى منهج سواه، بشرط أن ينظروا إلى الدين بمعناه الصحيح المتكامل. فكما يتفرد الدين بالدور الكامل في أمور العقيدة والشريعة والروحانيات (الثلاث نقاط الأولى)، فإن له دورًا يقوم به من خلال العلم والعقل. لو أدرك المتدينون ذلك فلا شك أنهم: سيسعون قدر جهدهم في البحث عن الآليات باستخدام العلم، ويسعون قدر جهدهم في فهم الغائية باستخدام العقل، ولا داعي لأن أقول باستخدام الفلسفة، حتى لا نختلف مع البعض حول الأسماء بينما المُسمى واحد!

* * *

عودة إلى أنتوني فلو

وتُعتبر رحلة أنتوني فلو خير مثال للتفاعل بين وجهي العملة (الفلسفة والعلم) كمصدرين بشريين للمعرفة. فأنتوني فلو يصف توصله إلى أن «هناك إله» بأنه ثمرة «رحلة عقل»، ليس للإيمان الديني دور فيه. فقد عاش فلو حياته الفكرية كلها في إطار القاعدة الفلسفية التي أرساها سقراط، وهي: أن «يتبع الدليل إلى حيث يقوده We must follow the argument wherever it leads»: ولقد قاده الدليل الفلسفي طوال حياته إلى الإلحاد، وإذا به يدلّه عند سن الثمانين إلى أن هناك إلهًا.

أنتوني فلو والتصميم الذكي ...

إن الدليل العلمي / العقلي / الفلسفي الذي قاد أنتوني فلو إلى رفض الإلحاد هو مفهوم «التصميم الذكي Intelligent Design»، الذي تموج به الأوساط العلمية والفلسفية والدينية منذ الربع الأخير من القرن العشرين^(١).

(١) يتبنى هذا المفهوم مجموعة من كبار علماء البيولوجيا والفيزياء والكيمياء والرياضيات، وكذلك مجموعة من الفلاسفة ذوي الاهتمام بفلسفة العلوم وفلسفة الأديان. وقد كوّن هؤلاء العلماء والفلاسفة ما يُعرف بحركة التصميم الذكي Intelligent Design movement، وأسسوا في مدينة سياتل - واشنطن، بالولايات المتحدة معهد الاكتشاف Discovery institute وذلك عام ١٩٩٤، ويقوم المعهد بالبحث في جوانب التصميم الذكي، وكذلك الترويج لهذا المفهوم.

ويدور مفهوم التصميم الذكى، حول: إن نشأة الكون وبنيته، وكذلك نشأة الحياة والكائنات الحية تبلغ درجة هائلة من التعقيد، تستبعد تمامًا أن تكون قد حدثت بشكل تلقائي عشوائي، وتُحتم أن يكون وراءها مصمم ذكى عليم قادر.

وفي هذا المعنى يقول الدكتور أحمد عكاشة^(١): إن من يفهم ويستوعب تشريح وفسولوجيا وكيمياء المخ، ولا يؤمن بوجود الله، فإنه لم يفهم شيئًا، لأن المخ البشرى هو معجزة الخالق.

• والآن، إلى التعريف بكتابنا «رحلة عقل»:

يتكون الكتاب من جزئين: فى الجزء الأول نعرض كتاب «هناك إله» لأنتونى فلو، وذلك فى بابين:

نعرض فى الباب الأول (من خلال ثلاثة فصول) كيف تم تشكيل فكر أنتونى فلو ليصبح فيلسوفًا ملحّدًا، بالرغم من أنه وُلِدَ فى أسرة مسيحية شديدة التدين.

وفى الباب الثانى نعرض (من خلال ستة فصول) رحلة أنتونى فلو من الإلحاد إلى الإيمان بأن «هناك إله»، فنعرض العوامل التى كانت وراء هذا التحول، وكذلك المفاهيم التى استقر عليها فكره بعد أن بلغ الثمانين من عمره.

كما نعرض المقدمة والخاتمة اللتين طلب أنتونى فلو من روى أبراهام فارغيس^(٢) أن يُقدِّم ويختتم بهما كتابه. ويطرح فارغيس فى المقدمة تطور مفهوم الإلحاد المعاصر، ودور أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد فى القرن العشرين.

وتحلل الخاتمة القضايا الرئيسية التى تعجز الفلسفة المادية والعلم التجريبي عن تقديم تفسير مقبول لها.

انتهى أنتونى فلو فى رحلته العقلية إلى القول بأن «هناك إله»، لكنه لم يتوصل إلى الدليل على تواصل الإله مع الإنسان، من خلال الوحي والأديان السماوية.

(١) أستاذ الطب النفسى، ورئيس الجمعية العالمية للطب النفسى WPA.

(٢) روى أبراهام فارغيس Roy Abraham Vargeese: يُعد من أفضل من كتب باللغة الإنجليزية عن العلاقة بين الفلسفة والدين والعلم. وأشهر كتبه التى نالت حظًا كبيرًا من الذبوع والانتشار كتاب «أعجوبة الوجود The wonder of the world»، صدر عام ٢٠٠٣. وكتاب «الكون والحياة والإله Cosmos, Bios, Theos»، صدر عام ١٩٩٢، ويعرض مفاهيم ٢٤ عالمًا من الحاصلين على جائزة نوبل، واختير أفضل كتاب صدر فى ذلك العام عن الإله. كما حصل روى أبراهام فارغيس على جائزة تمبلتون عام ١٩٩٥.

من أجل الاستدلال على ذلك وضعنا الجزء الثانى من الكتاب : «ونستكمل الرحلة».

يتكون هذا الجزء من عشرة فصول:

فى الأربعة فصول الأولى، عرضنا أربعة مفاهيم مهمة وأساسية لرحلة العقل، وقمنا بتقويمها بالمنهج العلمى والفلسفى:

- البرهان الكونى، الذى يعنى أن دقة بنية الكون تدل على وجود الإله الخالق.

- المبدأ البشرى، الذى يعنى أن الكون قد تم خلقه على هيئة ملائمة لظهور الحياة والإنسان.

- الفكر الدينى: كيف نشأ الفكر الدينى؟ وما دور الفطرة فى الدين؟ وكيف نُقَوِّم الدين الحق بأسلوب علمى موضوعى.

- الدين الطبيعى والعلمانية: هل خلق الله الوجود ثم اعتزله؟! وهل يُصَنَّف أنتونى فلو كأحد أتباع الدين الطبيعى؟

ولا تكتمل رحلة العقل إلى الله، دون النظر إلى علاقة الدين بالبيولوجيا، متمثلة فى الجينات والمخ (الفصل الخامس)، وفى القلب (الفصل السادس).

وفى الفصل السابع نبحث فى «حقيقة الذات الإنسانية»، وهل هى من نتاج المخ البشرى؟ أم أن الذات الإنسانية تتجاوز البيولوجيا؟

وبعد الوقوف مع العلم فى الثلاثة فصول السابقة، ندفع عنه كلاً من الاستغلال والاثام فى فصل بعنوان «العلم بين استغلال الملحدین واثام المتشددین».

بعد إدراك المفاهيم السابقة، نصل إلى الصورة المثلى للعلاقة بين الخالق والمخلوق، وهى ما يبحث عنه أنتونى فلو، ونعرضها فى الفصل التاسع بعنوان «الوجود الإنسانى: المصدر - المسار - المنتهى».

ونختم رحلة العقل بالفصل العاشر، بعنوان «بين وحيين». ونعرض فيه قصة «حى بن يقظان» لمؤلفها الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل، لنقارن بين رحلة العقل التى قام بها أنتونى فلو فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورحلة العقل التى قام بها ابن طفيل قبله بثمانية قرون. إن الكتاب رحلة مع الدين والعلم والفلسفة، تُعيننا على أن نأخذ موقفاً يقينياً تجاه أخطر قضية فى حياة الإنسان، ألا وهى قضية الوجود الإلهى.

